تولستوي : سيرة جديدة عنه تكشف مدى حبّه لأن يكون فلاحاً

ترجمة/ أحمد فاضل

تولستوي

منذ وفاته في ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٠ في محطة صغيرة للسكك الحديدية جنوب روسيا وسيل الكلام عنه لم ينقطع ، فقد صدرت بحقه عشرات الكتب بين سيرة ذاتية أو نقد، متناولة حياته وأعماله وأفكاره ، واحدة من أولى الصور التي تتحرك أمامنا أن لينين قال بعد عامين من وفاته: إن تولستوي كان مرآة للثورة ، وعلى حد سواء الثوار الشيوعيين آنذاك والحكومة الروسية كانوا يراقبون أثر وفاته في الشعب الروسي الذي شعر بأنه فقد ليس كاتبا عظيما فحسب بل فقد صوتاً أفصح بالنيابة عنهم عن ثائر عظيم ضد الظلم والوحشية التي تعرض لها من قبل القياصرة الذين حشد آخر أبنائهم شرطته السرية لتتبعه ومضايقته وتحريض الكنيسة عليه بسبب معتقداته التي رأى فيها القيصر أنها يمكن أن تثير غضب رجال الدين وهو ما تحقق بعد ذلك .

الكاتب الإنكليزي أي . أن . ويلسون وهو مؤرخ سير وروائي وكاتب عمود في صحف انكليزية عديدة وقد أصدر أكثر من ٤٠ كتابا آخرها سيرة ذاتية قصيرة عن هتلر، لم يكن الوحيد الذي تناول الحديث عن تولستوي في هذه السيرة الجديدة لكنه استطاع أن يثبت حقائق لأول مرة لم يتنبه لها آخرون ممن كتبوا عنه منها كيف أحب الأديب العظيم الزراعة، وأصبح فلاحا ينافس عشرات الفلاحين الذين يعملون في مزارعه ما أغاض بعمله هذا الطبقات الروسية الغنية الذين اعتبروا عمله تحريضا صريحا لعشرات الفلاحين والمزارعين الذين في خدمتهم كي يتمردوا على سلطتهم وسياساتهم الفوقية، فبعد أسبوع من وفاته قدمت امرأة إلى كافتريا للسكك الحديدية في موسكو لتجلس وتتحدث عن تولستوي واصفة إياه بأنه أهمل أدبه وكتاباته لصالح حفنة من الرعاع والفلاحين ما جعل نادل الكافتريا يرفض تقديم الشاي لها .

ويلسون وهو يقدم سيرة تولستوي هذه التي جاءت متزامنة مع احتفالات العالم بالذكرى المئوية لوفاته يقول : " عادة ما تكون هذه الذكرى فرصة لإعادة قراءة حياته وأعماله التي قد تشكل استفزازا لطرح اسئلة محيرة مفادها أن تلك الحياة والأعمال أصبح تأثيرها واضحا وهي جزء مما يواجهه العالم اليوم على الصعد السياسية والدينية والحياتية والتي تناهض في نفس الوقت كل أنواع القهر بما فيها الحروب" ، لذا فقد كان تولستوي ممثلا لروح الأمة الروسية هذا إذا ما علمنا أن ولادته في العام ١٨٢٨ ولادة غير فقيرة حيث كانت عائلته إحدى أغنى الأسر الروسية، وعندما شب أحب أن يجرب الحياة الخشنة فخدم في الجيش الروسي وشارك في حرب القرم وأصيب فيها بجروح بليغة انتقل بعد هذه التجربة الى تجربة الزواج من أجل بناء عائلة كبيرة تساعده في ادارة ممتلكاته الواسعة، وهذا ما حصل بالفعل حيث أنجبت له زوجته صوفيا ثلاثة عشر من الأبناء بدأ بتعليمهم مع عشرات الأبناء للفلاحين الذين كانوا يعملون في خدمته حيث وجدوه بعد ذلك يجلس معهم على مائدة واحدة للطعام وينام بينهم، وكان يختطف منهم أدوات الزراعة ليقوم بحرث الأرض وتعديلها وزراعتها بدلا منهم، كل هذا جرى وهو في حوزة عائلة كبيرة عاشت في كراسنايا التي كانت تقع إلى الجنوب من موسكو على مبعدة ١٣٠ ميلاً عنها.

ويلسون لم يفته وهو يستعرض كل تلك الذكريات من حياة تولستوي أن يقدم صفحات من عبقريته التي ظهرت في وقت مبكر، حيث صور بواقعية ملحوظة وبشكل دقيق ليس فقط تلك الأيام الخشنة من حياته العسكرية بل الرغبة في معرفة أفضل السبل للعيش وهو ما ظهر جليا في معظم كتاباته سواء في تأملات الأمير أندريه في رواية "الحرب والسلام" أو في تساؤلاته في "آنا كارنينا" ، ثم يعرج لكتاب الكاتبة الإنكليزية روزا موند بارتليت "تولستوي: حياة روسية" ليقول عنه إنه شكل لديه وضوحا من أي سيرة قرأها عنه، وبارتليت هذه كما يتحدث عنها كاتبة ومترجمة ومحاضرة متخصصة في تاريخ الثقافة والأدب والموسيقى تركز في أعمالها المنشورة وبشكل خاص على روسيا وأوربا الشرقية، وقد درست في جامعات أميركية وبريطانية متعددة صدر لها "روسيا وفاغنر" و"قصص تشيخوف" و"رسائل تشيخوف" وغيرها من الكتب ، وأنها حينما تناولت تولستوي بأقل من ٥٠٠ صفحة لم تعط لنفسها الوقت الكافي لتصوير مشهد واحد من مشاهد المجاعة التي ضربت روسيا وجعلت من الروائي العظيم يسارع لإقامة منظمة إغاثة لوحده لإنقاذ المتضورين من الجوع، جاعلا من مزارعه في كراسنايا أرضا لزراعة التفاح الذي يعود عليه بمردودات مالية جيدة حتى يستطيع من خلالها شراء ما يحتاج إليه لمنظمته، لكنها تمر على الأزمة التي طال أمدها والتي بلغت ذروتها في تحوله الديني عام ١٨٧٧ بشيء من التفصيل، وهو أهم جزء يعتبره ويلسون في تناول بارتليت لسيرة تولستوي، حيث أمضى النصف الثاني من حياته منزويا عن عالمه باحثا عن أجوبة للأسئلة التي كانت تؤرقه عن الدين والكنيسة والسلطة، في تلك الفترة بالذات تخلى عن جميع متعه بما في ذلك الكحول واللحوم والتبغ وراح ينشر أفكاره في الخارج، معتمدا في ذلك على أهم المقربين له من تلامذته وهو فلاديمير جيرتكوف، ومرحبا بالوقت نفسه بالكثير ممن كان يزوره للتعرف على أفكاره، وقد تكون تلك الفترة قد شغلته عن كتابته للرواية إلا أنه أنجز خلالها أعمالا رصينة اتسمت بالتعليمية الإرشادية التي كان ينشدها مثل "موت إيفان" و"القيامة" وهي الأعمال التي جاءت بعد "آنا كارنينا" مركزا على مساحات واسعة من معتقداته الدينية والروحية، ولو فرضنا - يقول ويلسون - أن أفكار تولستوي الدينية قد شابتها الفوضى غير المتناسقة على مستويات عديدة، لكنها كانت ثورة على العائلة المالكة الروسية والكنيسة الأرثوذكسية التي كانت تدعم واحداً من الأنظمة السياسية الأكثر ظلما في التاريخ الأوربي.

في الصفحات الأخيرة من السيرة يكتب ويلسون عن عبقرية تولستوي أنها أنتجت ملامح قوية لرهبة رجل مفكر امتدت رحلته مذ كان بمعية أجداده في كراسنايا وحتى رحلته الأخيرة في محطة السكة الحديد وهي تقاطعات أنتجت روائع أدبية خالدة منها على سبيل المثال لا الحصر "الحرب والسلام" و "آنا كارنينا" و "القيامة"، نستطيع القول أننا نعيش تاريخ روسيا من خلالها بل تاريخ البشرية التي نجد لها صورا واقعية نحياها في الوقت الحاضر.

البرج العاجي

فوزي كريم

"فاوست" على الشاشة

المخرج الروسي "اليكساندر سوكوروف" (مواليد ١٩٥١) يتوج أعماله السينمائية الثمانية عشر (وله ٢٨ عملاً وثائقياً لا تقل براعة) في العام الفائت بفيلم "فاوست" الذي حاز أعلى جائزة لأحسن فيلم في مهرجان "فينيسيا" السينمائي لعام ٢٠١١. اليوم يُعرض في لندن. وعادة ما تعرض أفلام من هذا الطراز الجدي بصورة خاطفة. التقطت الخبر وذهبت ظهيرة اليوم التالي. كانت صالة السينما شبه خالية، لأن من لم يقرأ الدراما الشعرية "فاوست" للشاعر الألماني "غوتة"، ويتابع ترجمة الحوار المتسارع، الكثيف، ويميل ببصيرة خاصة إلى طيات المعاني العميقة، قد يدخل في متاهة شديدة الغموض، يُسهم فيها التعامل السينمائي التعبيري مع الحدث، والشخوص، والحوار، والكاميرا، واختيار المكان والزمان... بصورة قد يكون في غنى عنها.

"سوكوروف" استلهم الدراما الشعرية في جزءيها، ولم يعتمدها حرفياً. كان يحاول أن يقرأ ما بين سطورها، على حد تعبيره. ولكن الأمر الذي شغله شغل الشاعر "غوتة" أيضاً: البحث عن كل ركنٍ معتم في داخل الإنسان، عن ذلك التوق المريع إلى السلطة (بدءاً من سلطة المعرفة!)، التي تقذف بـ"فاوست" إلى ملحمة صراعه مع الشيطان، ثم غوايته.

"فاوست" هو الخاتمة في رباعية "سوكوروف" التي بدأها مع فيلم "مولوش" (١٩٩٩) عن هتلر، "تايورُس" (٢٠٠١) عن لينين، و"الشمس" (٢٠٠٤) عن امبراطور اليابان هيروهيتو. فإذا كان الطغاة الثلاثة يرون أنفسهم ظلَّ الله على الأرض، ثم اكتشفوا أنفسهم بشراً في ما بعد، فإن "فاوست" بشرٌ يسعى ليتحول إلى إله أمام أعيننا. ولقد بدأ مسيرته المنتصرة هذه في آخر مشهد للفيلم، يوم قاده "مفيستوفولس" إلى أرض الجحيم، فائرة المياه.

براعة المخرج التعبيرية لا تُدخلنا في مكان وزمان محددين. فأنت تترك الحدث يعوم داخل مرحلة قد تبدأ في عصر شكسبير وتنتهي عند القرن التاسع عشر. الأزياء، والأزقة الخربة، والسلوك، والحوار، توحي جميعاً بخشونة طاغية، متزاحمة، بالغة العفن، مدعومة من كادر سينمائي مربع مضغوط على الشاشة، وزاوية نظر من الكاميرا مثيرة للارتباك، كثيرة الحركة، كثيرة التنقل، وإضاءة تذكر بلوحات الرسام "رامبرانت". ولك المشهد الأول للدكتور "فاوست" (جوهانيسزيلر) وهو ينقب في أحشاء جثة بشرية عن عضو تسكنه الروح: "الرب الذي يُرعش داخلي خوفاً يبدو خارجيا دون حول أو قوة"، وكأنه يباشر معتركه الميتافيزيقي. وبفعل الفاقة والجوع يخرج "فاوست" ليزور مرابياً في دكانه العنكبوتي المزدحم بالأشياء الغريبة. ويحاول إقناعه بأن يرهن أي شيء لديه مقابل وجبة غذاء، ولكن المرابي (أنتون أداسنسكي)، الذي يتمتع بهيئة ليست أرضية، لا يرتضي إلا توقيع "فاوست" بدمه الخالص. وجبة الغذاء تأخذ مداها في تحقيق كل رغائب "فاوست"، مقابل الإمساك بروحه في قبضة الشيطان. ومن هذه الرغائب الحصول على "مارغريت" فائقة البراءة. يحقق الشيطان له هذا، ولكن عبر جريمة قتل أخيها في خمارة تحت أرضية.

"الجميع يعرف تماماً ما الذي يقودهم إلى الجحيم." يقول الشيطان "ولكنهم يفعلونه بالرغم من ذلك". تغيم الشخوص في الظلال لأن المخرج ينصرف إلى بطله "فاوست"، وإلى تحدياته من أجل سلطة تفوق كل السلطات. فلا مكانة للسماء في هذا السعي الحثيث إلى الجحيم: "لا وجود للخير، بل للشر وحده"، يقول مفيستو.

كنت أتابع وأفكر: "لا تأمن رجلاً بالغ الطموح". "غوتة" يقول: "من لا يعرف السعادة إنسانٌ خطر". حب الكلمات التي يسهل الإيمان بها، وانعدام الرضا وغلبة التعاسة أمام عطايا الحياة تسهل تماماً هذا العقد الدموي بين الإنسان والشيطان. لقد قطع "فاوست" شوطاً بعيداً من هذا. شوط يراه من يملك بصيرة في كل مسعى حار وأعمى بالضرورة، باتجاه السلطة، القيادة، المال، الشهرة، النجومية...

لورنا سليم زهرة الأسرار العراقية

جواد سليم مع زوجته لورنا

د. فاضل سوداني

لماذا دعوتك للمجيء الى هذا المكان المستعر مثل فرن كبير ، حيث الغبار يغطي الأشجار وحافات النوافذ وأهداب العيون وكل شيء) . فتركت لندن وعائلتها وعملها في التدريس وأقلت الطائرة المتوجهة الى بغداد جواد سليم لتبدأ حياة غريبة كأنها حلم طويل يشاركها فيه فنان مبدع.

كان قلب بغداد رحبا في تلك الأيام للأبناء والغرباء كما تقول لورنا حيث لم يجبرها أحد على لبس العباءة أو الالتزام بالتقاليد العراقية، أو لم يعترض أحد ما على المعلمة الإنكليزية لورنا التي كانت تقطع شوارع بغداد بدراجتها وهي مذهولة ومندهشة بحياتها الجديدة. وحتى يعيش كان جواد يعمل ويدرس في ثلاثة أماكن في بلد غني مثل العراق .

وقد كانت طبيعة العلاقة بين لورنا وجواد ليست كزوجين أو حبيبين فحسب وإنما كفنانين متنافسين أيضا، فقد كان يؤمن بأن الفن لا يمكن حصره في المعرض أو المتحف وإنما يجب أن يلتصق بالناس، ومن هنا أتت فكرة أن يكون نصب الحرية في ساحة التحرير.

فقد استطاع محمد مكية إقناع المسؤولين بعد ثورة ١٤ تموز بفكرة النصب وتحمس لها المرحوم الزعيم عبد الكريم قاسم، من أجل أن يرى العراقيون يومياً تاريخهم ومستقبلهم منحوتا أمامهم. وعند مقابلة الفنان جواد لرئيس الجمهورية أيقن بأنه أعطاه مسؤولية كبيرة ليس أمامه فحسب وإنما أمام الشعب العراقي.

وتذكر المؤلفة أنعام كجه جي في كتابها (لورنا .. سنواتها مع جواد سليم) الكثير من معانات جواد سليم وزوجته التي رافقته إلى إيطاليا ، وكذلك القلق والجهد وهو يحاول أن ينجز تاريخ العراقيين نحتا حيويا في الصخر، فرقد في المستشفى الإيطالي وهو مصمم أن ينجزه في الوقت المقر ونجح في أن يرسل منحوتاته إلى بغداد مشحونة من فلورنسا .

وكاد الفنان أن يرى حلمه يتحقق حينما بدأت القطع البرونزية الضخمة تعلق على واجهتها المرمرية الضخمة التي أنجزها المعماري رفعة الجادرجي وسط بغداد. وبالرغم من أن النصب كان هدية الفنان للعراقيين لكن قلبه لم يتحمل حتى النهاية. فتوقف في كانون الثاني عام ١٩٦١ .

ومن أجل هذا تكفلت زوجة الفنان وأصدقاؤه وتلاميذه إنجاز النصب، فهي التي تعرف جميع تفاصيل العمل بدقة متناهية. وتقديرا لجهودها واحتراما لإبداع زوجها منحها رئيس الجمهورية الجنسية العراقية على الرغم من أنها كانت تتوقع تعيينها بوظيفة ما أو منحها بيتا عراقياً تسكن فيه .

التقت الفتاة الإنكليزية لورنا بجواد سليم في مدرسة سليد للفنون الجميلة في انكلترا عام١٩٤٦ ، ذلك الفنان العراقي المتمرد على الأنظمة المدرسية المتزمتة، محاولا أن يمتلك تلك الروح الفنية . البوهيمية من أجل إغناء مستقبله الفني. ومن اللقاء الأول أدركت الفتاة بأنها أمام إنسان مختلف عن الآخرين بكل شيء .

بعد أن أنهى جواد الدراسة في سنتين بدل من ثلاث وحانت عودته إلى العراق عام ١٩٤٩ صارحها برغبته في الزواج، ومن بغداد كتب لها (لا أدري

في نادي السرد

ياسين النصير يتحدث عن فن اليوميات

بغداد /محمود النمر

ضيّف نادي السرد في الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين، الناقد ياسين النصير لإلقاء محاضرة بعنوان "فن اليوميات" وقدّم الجلسة الروائي حميد الربيعي الذي قال: يعد ياسين النصير من أعمدة النقد العراقي والعربي حيث تمكن لأكثر من أربعة عقود من رصد واقع الحركة الثقافية، متلمسا كل ما يجد من عناصر إبداع، ويرصد كل ما يثير الدهشة، فكانت له العديد من الإصدارات النقدية، وكذلك كتب عن الأمكنة وتناولها بنصوص عالية في فن الرصد المكاني والزماني ،وخاصة في "يوميات سائق تاكسي" وغيرها من الكتب في فن السرد وفن الشعر.

وتحدث الناقد ياسين النصير عن المساحات والكتابات اليومية التي اسماها "فن اليوميات" مشيرا إلى أن هذا الفن يختلف اختلافا جذريا عن كتابة المذكرات اليومية حيث أن "فن اليوميات" له ذاكرة جمعية تخص الإبداع، أما المذكرات اليومية فتخص الفرد، وقسم النصير المحاضرة إلى ثلاثة أقسام: يوميات.. مألوف.. غير مألوف .. لماذا اليومي؟ ما هو الثقل الفلسفي على الكائن؟ إن المساحة في البيت مقسمة إلى أمكنة، وان التماس بين هذه الأجساد يخلق ثقافة ، ثقافة الوجود اليومي والحياة اليومية التي تتداور، ففي هذا الجانب تبدأ مذكرات رومانسية وعلاقات ذاتية، الشيء الذي فيه عواطف وإنسانية اكبر وأفضل، الشيء الذي يتكلم عن تجربة الأنامل الذاتية، وهو في الحقيقة نص إبداعي يصلح أن يكون للرواية، من أفعال الجسد ومن العلاقات الأسرية ومن مكوناتها وحاجاتها، هذا ما يحدث عندي في الأسرة صباحا، وقد تكون هناك مشاحنات ومشاكسات مع الزوجة أو الأبناء، وعندما اخرج من البيت، القي بنفسي على هذا الإرث اليومي البسيط المكرر والعادي والذي فيه الكثير من المساحات المبهمة الخاصة جدا بحيث لا اقدر أن احكيها إلى أي إنسان آخر، وعندما أكون في الشارع في هذا الفضاء الواسع الكبير، وعندما اصعد سيارة "الكيا" مع ناس لا اعرفهم وهم عوالم كلها خارجة من بيوتاتها وكلها تحمل هذا الذي احمله، ولكن لا نتحاور ،ولا نبني تكونا ثقافيا معينا، لكن في الوقت نفسه ، نجد أن هذا الكون الصغير المتحرك، واقصد سيارة الكيا، ومن البيت باتجاه العمل ، يؤسس لي تماسات مع فضاء المدينة، مع الشارع ، مع العربات ، مع التنظيم ، مع اللانظام ، مع الفوضى ، مع مناطق السير ، وهنا تكون عندي حاسة البصر هي التي تقرأ، وبنفس الوقت أجد أن بعض الناس قد جاءوا من مناطق شعبية، وبعضهم من مناطق متقدمة مع العلم أن الباص نفسه يمر في مناطق أحيانا قد تكون ممنوعة وأحياناً غير ممنوعة أو ليس لك الحق أن تمر بمثل هذه المناطق.

وضاف النصير في المحور الثاني من محاضرته، المؤلف – النص، وقال : اليوميات صور بينما هي تدوين ، بينما هي اعترافات ، أقول اعترافات بينما هي سيرة فوتوغرافية بالكلمات ، أقول سيرة بينما هي بورتريت ، أقول بورتريت بينما هي رواية الشخصية ، وأقول رواية الشخصية أعني فضائيا ، النقطة المعزولة التي تمد خطها نحو نقطة معزولة التواصل والحوار ، وذلك أن تعدد زوايا الرؤيا لليوميات التي نجهل التعامل معها بوصفها بوحا واعترافا ولغة مستنبطة من الداخل ومتوجهة إلى الخارج ، أهي أغنية ترنيمة ،معزوفة ،لا يشارك فيها احد ، فأنت العازف وأنت المايسترو وأنت المستمع وأنت المؤلف.

وكانت هناك مداخلات، وأثيرت أسئلة حول منهجية المكان والزمان وتداخلات هذه الأمكنة ، وكان من أبرزهم الروائي احمد خلف والروائي حنون مجيد والناقد سعد مطر والقاص خضير فليح الزيدي والقاص صلاح زنكنه.

النصير وحديث عن اليوميات